الفن بين الإقبال والنفور

من الناس من لا يرتاد المعارض الفنية، إما لأن وضعه الاجتماعي لا يسمح له بالتفكير في غير القوت وسبل الحصول عليه، وإما لأنه لا ينجذب بطبعه إلى الأعمال الفنية، أيا ما تكن المدرسة التي تنتمي إليها، بدعوى أنها معقدة أو عبثية أو غامضة، وفي كل الأحوال لا تمثل الواقع كما يتصوره، ولا تحرك فيه أي إحساس.

أبو بكر العيادي
كاتب تونسي

إذا نظرنا إلى العمل الفني كقطعة جميلة تتوجه إلى حواسنا ومخيالنا، فمن الصعب منطقيا أن نزعم أن العمل الفني لا يترك أثرا فينا، لأنه جعل لكي نتأمله بحواسنا، وهو يتوجه مباشرة إلى حساسيتنا. فمن خلال قوة استثارته للمخيال، كما بين روسو وسبينوزا، يمتلك الفن قدرة مقاربة الواقع بشكل يستدرج مألوفنا اليومي شئنا ذلك أم أبينا، ما يجعل ردة فعلنا أمام عمل فني غير خاضعة لاختيار ما، لأن حساسيتنا هي التي ستتفاعل مع ما يعرض عليها. وحتى إن حاولنا إبداء حكم ذوقي، فإنه سيكون مستندا في أساسه إلى المتعة التي نحس بها عند التواصل مع الأعمال الفنية، كما يقول ديفيد هيوم في كتاب "من المعيار إلى الذوق". أي أن علاقتنا بالفن تقوم على الحساسية، ولا يمكن تبعا لذلك أن نكون عديمي الإحساس تجاهه.

من يقاطعون المعارض الفنية بدعوى أن الفن غير مجد عليهم أن يعلموا أن الفن «دليل على أن الحياة لا تكفي»

ولا يعني ذلك أن علاقتنا بالفن ذاتية صرف، لأننا إذا حاولنا إبداء حكم ذوقي يتجاوز إحساسنا، ففي ذلك سعي نحو تكوين معيار موضوعي، وحتى حكم كوني. فالحكم الذوقي عند كانْت مثلا له قيمة كونية، لأنه يقوم على "الذوق العام"، أي تلك الملكة التي تجعل كل إنسان حساسا تجاه الفن، وفي كل الأحوال قادرا على أن يكون كذلك، لكون الإحساس كامنا فيه.

بيد أن فئة من الناس لا تستهويها الأعمال الفنية، ولا تبدي أي اهتمام بالفن، لأن طبيعة الفن التخييلية تجعل منه نشاطا ذا صبغة خاصة في الواقع، وعديم المنفعة عمليا وفق تقديرهم للحاجات الضرورية التي لا يستقيم العيش من دونها. فما معنى أن يضيّع المرء وقته في تأمل أشياء عديمة الجدوى، وهو ما وصفته حنة أرندت في "أزمة الثقافة" بالفيليستية أي خشونة الذوق، التي تتبدى في رفض الفن جملة وتفصيلا واعتباره عديم الفائدة. بل إن ثمة من يدينه من وجهة نظر أخلاقية، بدعوى ازدرائه المقدسات، أو تشويهه الواقع، أو إمعانه في المسخ والتضليل والإيهام. أولئك يجهلون أن الفن عندما يدعونا إلى التخلص من الواقع والهروب منه إلى عالم الخيال، فإنما الغاية من ورائه أن يخفف عنا ضغط ذلك الواقع وإرغاماته، فلا تكون علاقتنا به ملزمة، مفروضة. ثم إن الوجه التخييلي للعمل الفني لا يعني أنه منقطع عن الواقع، بل هو انعكاس له، لأنه يندرج في حقبة محددة وثقافة معينة، ويملك بعدا جوهريا في ما يسميه هيغل "روح الشعب". وبالتالي فالفن ليس عملا تخييليا صرفا ولا وسيلة متعة زائدة وإنما هو عنصر جوهري في الثقافة.

ويخطئ من ينظر إلى الفن من جهة جدواه وكأنه جزء من الوسائل اليومية التي يتدبر بها الإنسان أمور عيشه، لأنه في الحقيقة يكشف لنا عن الواقع ويرينا ما لا نرى في العادة، أو من زاوية غير التي اعتدنا أن نراه بها، كما بيّن برغسون وكذلك بروست. ومن ثمّ فالفن لا يهدد علاقتنا بالعالم، بل هو يثري تلك العلاقة فيكون عاملا أساسيا في حياة البشر، شرط أن يتأولوه لإدراك معانيه.

يقول الفيلسوف الألماني ماركوس غابرييل "ينبغي تأويل العمل الفني لاكتشاف الحقل الدلالي الذي يخلقه وتبيان ما يمثله". فلا وجود لمبدأ أول، وطريقة واحدة في النظر إلى الأشياء، بل ثمة عدة منطلقات. وفي رأيه أن كل عمل فني يفتح على فضاء من التأويلات لا حصر لها، ولكن دون أن تكون تلك التأويلات ذاتية صرفا لأن ثمة حقائق، وثمة توصيفات أخطأت مرماها، لكون عملية الخلق ليست مطلقة. وفي اعتقاده أن الفن يتجاوز الفكرة الدينية عن اللانهائي، ويذكرنا بأن ثمة عدة لانهائيات، وعدة أنماط عيش واقعية، بل إن تاريخ تطور العقل البشري يمتزج بتاريخ الفن.

لقد كان لابتكار فناني النهضة الأفقَ المنظوريَّ أثرٌ كبير على علماء الرياضيات ومقاربتهم للعالم، كما وجهت روايات الخيال العلمي العلم الحديث باقتراح إمكانات غير معروفة. فالفن كما يقول ليس وسيلة ترفيه ولا يهدف فقط إلى بلوغ الجمال كما كان القدماء يعتقدون، ففي حياتنا اليومية نبصر أشياء دون أن نعي أنها تنبثق من خلفية عميقة هي حقل من المعاني، وعندما نقف أمام عمل فني، نتحرر من الفكرة القائلة إننا أمام عالم منظم سلفا وما نحن سوى من يشاهدونه مشاهدة سلبية.

قد نفهم دوافع من لا يرتادون المعارض بسبب ظروفهم الاجتماعية، أما أولئك الذين يقاطعونها بدعوى أن الفن غير مجد، فحسبنا أن نؤكد أن الفن "دليل على أن الحياة لا تكفي" بعبارة بيسّوا عن الأدب. وهو ما تناوله الإيطالي نوتشو أوردين في كتابه "جدوى ما لا جدوى له"، حين أحصى المعارف الإنسانية عديمة الفائدة، بالمفهوم المادي القائم على الربح، كالشعر والأدب والفن والموسيقى والفلسفة وعدة علوم لا يستهان بقيمتها، وبيّن أن تلك الأنشطة – غير المجدية في الظاهر – هي التي تخفف عن الإنسان معاناته في عالم يسوده الإرهاق والكآبة. وفي رأيه أن مجتمعا يعجز عن تصور أنشطة خالية من أي غاية نفعيّة هو مجتمع يُحتضَر.

بين مقبل ومدبر الفن يبقى جوهريا

عزلة الأدباء والمثقفين تفرغ الحراك الثقافي من المضمون

نشأت المصري: الأدباء والمثقفون منفصلون حتى عن العربة الأخيرة

مثل جيل السبعينات الأدبي في مصر رافدا هاما للساحة الثقافية العربية، حيث كان الحراك متوهجا في محاولة من بعضهم تجاوز التقليد إلى التأصيل ومحاولة آخرين التغير الجذري وآخرين التوفيق وغيرها من الاتجاهات التي كان لكل منها تأثره وتأثيره. "العرب" التقت الشاعر والروائي نشأت المصري، وهو من أبرز وجوه جيل السبعينات في مصر، وكان لنا معه حديث حول الأدب كيف كان وما هو عليه اليوم.

التعالي الأدبي أفسد المشهد

محمد الحمامصي
كاتب مصري

يجمع نشأت المصري بين كتابة الرواية والشعر والمسرح والدراما الإذاعية وأيضا الكتابة للبرامج الإذاعية، يكتب للكبار والأطفال، وقد استطاع منذ انطلاق مسيرته الإبداعية أن يخلص لقضايا مصر والأمة العربية، وأن يجعل من تلك القضايا أحد مشاغله الرئيسية بعيدا عن قضايا التنظير سواء ما تعلق منها بالإبداع أو النقد.

وعلى الرغم من انتمائه إلى جيل السبعينات معاصرا للعديد من الاتجاهات والتيارات التي أشعلت الساحة الأدبية والنقدية وغيرت الكثير من سياقات الكتابة، إلا أنه ظل محافظا ومحتاطا لتجربته التي تعمقت على اختلاف مساراتها بين الرواية والشعر والمسرح لتشكل بناء خاصة في نسيجه الأسلوبي والرؤيوي، وقد تجسد ذلك في ما يقرب من 27 عملا روائيا وقصصيا و30 عملا شعريا ومسرحيتين بالإضافة إلى 6500 حلقة إذاعية.

التعالي الأدبي

بداية وحول المراحل التي قطعتها تجربته مع الكتابة، يذكر نشأت المصري أنه بدأ بالشعر ثم كتب الرواية فالمسرح، ويقول "الشعر بسط أجنحته على إبداعي كله وأرى أنه يضيف إليه فيعمق التعبير، ويلمس جذور المعاني إلا أن تأثير الشعر على المسرح أكبر، لأن المسرح بدأ شعريا وهو يزدهر به".

ويؤكد المصري أن قضايا الإنسان مع العدل والحرية شغلته في مجمل إبداعه، متابعا "العدل لا يتوفر إلا في مناخ الحرية. وكذلك قضية الانعتاق من عبوديتنا للماضي التي تعطلنا عن الوثوب إلى المستقبل، فليس كل ما نرثه قابلا للتطبيق أو ينبغي تطبيقه. وهذه القضايا متجذرة في الواقع العربي المهزوم والمأزوم معا الآن. وأصبحت تعلة سخيفة ووسيلة الرمز للهروب من ضراوة الواقع، أو اللجوء إلى التاريخ أو الغرق في إسقاطات بدأت تفقد تأثيرها أمام الصور المباشرة الصارخة. نحن نحتاج إلى مثقف يواجه أمراضنا الاجتماعية والسياسية معا".

ويرى المصري أن مشهد الشعر يدعو إلى الرثاء. ويقول "في زيارة واحدة لبيت الشعر الذي يرأسه حجازي تجد الرد جليا حيث الشعراء يخاطبون أنفسهم فقط، والجمهور في غياب لأسباب بعضها يتعلق بالمدرسة التي تقرر على الطلاب نماذج منفرة من الشعر، والشاعر الذي يلهث مقلدا النصوص الأجنبية أو يوغل في الرمز إرضاء للنقاد، وهذا التعالي الأدبي أفسد المشهد. مع التغافل عن النماذج الجميلة المدهشة التي يقدمها قلة في مقدمتهم الدكتور أمجد ريان، والتي تعتبر نموذجا لما يجب نشره بين الطلاب. أمر آخر مهم هو تقوقع الشعراء في قاعات الندوات وعدم التحامهم بالجمهور. كما أن ما ينشر من شعر من طرف وزارة الثقافة تسيطر عليه شلة من المتحلقين يضاعفون الهوة بين الشعر والمتلقي، والعجيب أن شعر العامية أيضا ارتدى قبعة وتاه في زحامهم، وكذلك غياب حرية الكلمة يقتلها في مهدها، وبشكل ما فإن الأزمات الاقتصادية الدائمة تجعل الأولوية لرغيف الخبز. إنها مشكلة أمة لم تنهض بعد".

ويلفت المصري إلى أن حركته مع الشعر تشكل له ضرورة فهو لا يملك طي صفحته، ويضيف "الشعر يغير جلده معي فيتقمصني في صورة مسرحية شعرية أوسرد شعري لقصص من الواقع أو من التراث أو من القصص الديني، كما هو الحال في 'معجزات الأنبياء' للفتيان. وحاليا تستهويني قصيدة التفعيلة وأحيانا قصيدة النثر، وشحنة القصيدة هي التي تختار مسارها. كما أن ما يمكن تسميته بقصيدة الومضة يلح على قلمي وهذا اللون في ظني أقرب إلى روح العصر، لكن هذا لا يلغي أهمية ومكانة النماذج الجديدة الممتازة من القصيدة العمودية. إن ظهور أو غلبة لون من الكتابة لا يعني اختفاء ما عداه بدليل إقبالنا حتى الآن على أشعار كبار شعرائنا القدامى واستمتاعنا بها".

وحول نشره ثلاث روايات متتابعة هذا العام، يقول المصري "كما يقال في الشعر إن القصيدة تفرض قالبها المفضل لدى من يكتب دون تقيد بإطار مسبق، فإن الرواية رغم تخطيط العديد من فصولها وتفاصيلها قبل البدء تفرض أيضا وسائلها المعبرة، ولهذا فإن تطبيق قواعد غربية مستحدثة على التكنيك قد يكون عائقا أمام القارئ العادي وهو هدفنا الأول وإن صفق له نقاد الحداثة وما بعد الحداثة. وفي ندوة أخيرة سمعت ناقدا كبيرا يحدثنا بما قاله بارت ولم يحدثنا عن تصوره هو، هذه التبعية غير المبررة تؤثر بالسلب على الكتابة ووصولها إلى جمهورها الطبيعي".

أزمات وحلول

يرى نشأت المصري أن مشهد أدب الطفل مشهد مظهري معظمه يتجلى في المدن، أما القرى التي تضم غالبية السكان فلا تتجه الخدمات الثقافية إليها بشكل كاف. ومكتبات المدارس في القرى تعاني من الإهمال، وحتى على المستوى التنظيمي اختفت حصة المكتبة. وهناك حلول وخطط بسيطة لا تكلف شيئا لكنها تخدم الأمة، وعلى المسؤولين أن يبادروا بتنفيذها إذا كانوا يفقهون، ومن ذلك مثلا إعادة حصة القراءة بنهج جديد حيث يعرض الطفل في كل حصة مضمون كتاب جديد من المكتبة، واقتراح آخر جميل نشره الأديب أحمد الخميسي بأن تستضيف الحصة أديبا يحكي للأطفال عن كتاباته. لكنه يتساءل "هل النظم العربية تتطلع فعلا إلى تعليم وتثقيف الشعب؟".

ويواصل المصري تساؤله في سياق أدب الطفل عن دور التلفزيون المصري، ويقول "هو من مدة طويلة عاجز عن إنتاج أعمال لافتة للطفل ربما لضعف التمويل. ولا يمكن أن نتغافل عن دور وحجم أداء مسرح الطفل، إنها أعمال تقدم على سبيل العينة لفترات محدودة جدا وفي أماكن أقل محدودية، والمسرح المدرسي يعمل على خجل من أجل المسابقات فحسب، لكن لا يوجد مد مسرحي دائم في المدن والقرى، كما أن المسؤولين على مسرح الطفل تحكمهم الوساطة ومجاملة موظفي وزارة الثقافة من الكتاب بغض النظر عن جودة أعمالهم. إن عدم امتصاص وقت وطاقة الطفل في القراءة والمسرح يجعله فريسة سائغة لمعطيات التفكير المتطرف والإنترنت ومخاطره، ويخلق طبقة من جهلة المثقفين يصبحون طعاما للإعلام الفاسد وتحويلهم إلى عناصر هشة تهدد مستقبل الأمة، ومن البلاء أيضا أن الطفل العربي يتربى على الخوف والتهاون في حقوقه لأسباب منها رد فعل الأب والأم تجاه انتهاكات الآخرين لهم. وللأسف فإن جانبا كبيرا من أدب الطفل يزرع العبودية في نفسه خصوصا هذا النقل الغبي من التراث دون تنقيح".

ويشير المصري إلى أن الحراك الثقافي ينحصر في مجالين الأول حراك رسمي حكومي والثاني جماهيري خاص، الأول تقليدي يتم بالحد الأدنى من الجودة لأنه مكبل بالمحاذير الرسمية والمصالح والشلليات، والثاني يعمل متوجسا خائفا، ناهيك عن قلة التمويل. ومن واقع تجربته المباشرة يلاحظ محدثنا أن الجوائز عامها وخاصها تعاني من انعدام المعايير، أما الجماعات والجمعيات الأدبية العريقة مثل نادي القصة، فقد انحسر نشاطها رغم جهود القائمين عليها. ونشهد عزوفا للجماهير عن متابعتها بما في ذلك الندوات الأدبية التي أصبحت دوائر مغلقة على الأدباء، وهذه العزلة تفرغ الحراك الثقافي من مضمونه، ومن الأمثلة الصارخة بيت الشعر بالقاهرة الذي لا يحضره أحد وهو أهم نافذة للشعر في القاهرة بالإضافة إلى الدور الضعيف الذي يقوم به المجلس الأعلى للثقافة بلجانه العاجزة.

الحراك الثقافي ينحصر في مجالين الأول حراك رسمي حكومي مكبل بالشللية والثاني جماهيري خاص يعمل خائفا

ويؤكد المصري أن الحراك الثقافي لا ينفصل بحال عن حيوية المجتمع ومدى الحرية فيه، حتى القضايا الكبرى يتخاذل المثقف عن تبنيها مثل شبح العطش القادم. وننتهي إلى المجلات وهي تعاني من انعدام الإقبال عليها عدا مجلات الأطفال المدعومة، وأيضا نحذر من استمرار غياب الخطط العلمية والمعايير، وتخضع الترجمة أيضا لنفس المشكلة، إن غياب الرؤية كما يجب أن تكون وسوء اختيار القيادات الثقافية هما من أهم آفات واقعنا الحالي.